# لبنان وحدوده الجنوبيّة.. في تهافت الخطاب "السّيادي"

مالك أبو حمدان



إنّنا أبناء بلد واحد، ولبنان هو وطننا النّهائيّ جميعاً. قدرُنا أن نعيشَ مع بعضـنا البعض حتّى يأذن الله بغير ذلك أو يُحدثَ بعـد ذلـك أمـرا. ولا بـدّ، إذا تحاوَرنـا من أن نقـوم بـذلك بطريقـة حضـاريّة وضـمن إطـار هـدفٍ مركـزيٍّ يتمثّـلُ في تحقيـق المصـالح الوطنيّة المشتركة.. وعلى اختلافها. إنّها قناعاتٌ راسخةٌ عندي بلا أدنى شـكّ، بـرغم عـدم اختبـائي من كـوني مقتنعـاً إلى الآن بالخيـارات الكـبرى لمـا يُسـمّى بمحـور المقاومة في المنطقة وفي لبنان. لا أخفي ذلك ولا أتعاطى معه بأيّ نـوع من أنـواع العقد المفاهيميّة أو النّفسيّة. إنّـني وفي الـوقت عينِـهِ: مقتنـعٌ بهـذا الخـطّ الإقليمي واللّبنـاني.. وداعٍ دائم إلى الحـوار والنّقـاش، وربّمـا إلى التّفـاهم حيث أمكن، مـع المخالفين والمعارضين لهذا الخيار العـام (لا سـيّما في لبنـان). وفي الـوقت نفسِـهِ أيضاً: من يعرفني يعلم بإيماني العميق بمبـدأ الأمانـة الفكريّـة ومبـدأ تجنّب الأحكـام المسبَقة في أيّ نقاش.. ولو كان حول المفاهيم الفلسفيّة والدّينيّة الأساسيّة! لذلك، أرجو أن يكون في ما سيلي مـادّة للحـوار الجـدّي والنّقـاش المُثمـر. فلقـد حـاولت، وللأمانـــة مجـــدّداً، أن أفهم ثمّ أتفهّم.. وربّمـــا أقتنـــع: بجـــلّ الخطـــاب المســـمّى بـ"السّيادي" في لبنان. ولم أستطع – صدقاً – أن أقتنـع بركـائز أساسـيّة فيـه ولا أن أفهمها ولا أن أتفهّمها في الأعمّ الأغلب.. لا سيّما في مـا يخصّ التّعـاطي مـع قضـيّة اتّقاء عدوانيّة – أو ردع – الكيان الصّهيوني على حدود لبنان الجنوبيّة (ضمن ما يمكن تسميته: "بالمشكلة الإسرائيليّة على حدودنا"). أقصد هنا، بالتّحديد وبالإيجـاز، نقـاط ثلاث: لنقـل، بأمانـة فكريّـة، إنّهـا تقـف بين هـذا العبـد الفقـير – وبين اقتناعـه بهـذا الخطـاب عمومـاً وبهـذه المسـائل خصوصـاً. النّقطـة الأولى: هي النّقطـة المتعلّقـة بمسألة "إسرائيل" ومطامعهـا بشـكل عـام أو كعنـوان عـام. فلا أزال أسـمع وأقـرأ الكثير من "السّياديّين" يتحـدّثون عن هـذا الكيـان وكـأنّ لـه حـدوداً نظريّـة واضـحة ودقيقة وجدّيّة ونهائيّة.. ومعترفاً بها من قبله هو أصلاً! ويمكن اختصار إشكاليّتي مـع هذه النّقطة من خلال زاويَتَين رئيسيّتَين بالتّحديد: لست خبيراً في القـوانين الدّوليّـة ولا في القوانين الدّستوريّة بشكل عام، ولكنّني أقـرأ وأتـابع كغـيري من النّـاس.. أنّ هذا الكيان نفسه يحاول ألّا يحدّد حدودَه بشكل دقيق ونهائيّ (أو هو عـاجز عن ذلـك حتّى الآن بالمعنى الدّاخلي للكيان). على علمي كما يقولـون: "إسـرائيل" نفسـها لا تعطي حدودَها النّهائيّة بشكل واضح وصريح وجدّي. هل أنا مخطئ في هـذه النّقطـة حقّاً؟ أيضاً كغيري من النّاس والمراقـبين، لا أنفـكّ أسـمع هنـا وهنـاك، في الأدبيّـات الإسرائيليّة والصّهيونيّة: أحاديث وتلميحـات وتصـريحات حـول حلم أو تصـوّر الدّولـة اليهوديّة الكبرى.. من النّيل إلى الفرات، أو ما شابه ذلـك في الزّائـد أو في النّـاقص القليل. "حزب الله" وحلفاءه في لبنان.. في موقع فائضِ-فـائضِ القـوّة المفاهيميّـة بالإضـافة إلى موقـع الفـائض الكبـير للقـوّة العسـكريّة والنّاريّـة الـتي لا تكفي في مواجهة كهذه طبعاً. فخيار المقاومة المسلّحة غير الرّسميّة / غير التّقليديّـة لم يـزلْ

هو الخيار الأقرب إلى المنطق وإلى الصّواب.. في مواجهة عدوّ كهـذا العـدوّ صـدقاً، ما لا أفهمه هنا هو: بالله عليكم، كيف يُمكن البدء بالحديث وبالتّفكير عن الرّدع وعن اتّقاء عدوانيّـة هـذا الكيـان المُحتملـة.. دون الانطلاق من هـذه النّقطـة الـتي تُفيـد – بشكل واضـح إن لم أكن مُخطئـاً – بـأنّ "إسـرائيل" نفسـها لا تنفي – بـل تُصـرّ في الأرجح على – خيــار التوسّــع والعــدوان على جيرانهــا! عنــدما أســتمع إلى بعض "السّياديّين" في لبنان أو أقرأ مقالاتهم: أتفاجأ حقّاً وأصدم.. أمـام هـذا التّغاضـي أو التّساهل تجاه هذه النّقطة، أي نقطة أنّ "إسرائيل" نفسها لا تنفي أرجحيّة خياراتهـا التّوسّعيّة والعدائيّة (نظريّاً وتجربةً). نحن هنا برأيي أمام مشكلة كبيرة واقعاً في مـا يخصّ هذه النّقطة الأساسيّة ولـو أُخـذت لوحـدها. كيـف يُمكن للبعض منّـا، بعـدُ، أن يتحدّث عن القضيّة وكأنّنا أمام إشكاليّة ردعٍ لكيان: يتقبّل حدوداً جغرافيّة معيّنة لـه.. أو يعترف بحدود جغرافيّة نهائيّة بشكل واضح وصريح؟ غير أنّ هذه النّقطـة العجيبـة والرّئيسيّة ليست الوحيدة طبعاً، فهناك نقطـة وأسـطورة "المجتمـع الـدّولي" الـتي تصدمني مقاربة "السّياديّين" لها بشكل متسـاوٍ أو أشـدّ قـوّةً: النّقطـة الثّانيـة: وهي النّقطة المتعلّقة إذن بمسألة ما يسمّى عادةً وعُرفاً واصطلاحاً واختصاراً بـ"القوانين الدّوليّة" من جهة، وبـ"المجتمع الدّولي" من جهة ثانية. هنا أيضاً: ما يصعقني بشـكل خاصّ هو تحدّث البعض عن القوانين الدّوليّـة وكـأنّ "إسـرائيل" تعبـأ أصـلاً بقوانيننـا وبشرائعنا جميعاً كعرب.. وكبشر! هل بيّن سلوك هذا الكيان منذ تأسيسه أنّـه يقلـق من عدم تطبيق هذه القوانين والشّرائع والمواثيق وما إلى ذلك من تسـميات وأبنيـة مفاهيميّة وذهنيّة (اللّهم إلّا إذا اضطرّ إلى ذلك ضرباً بالصّــواريخ ذاتِ اللَّهب مثلاً.. أو بضغوطٍ من أسـياده ومموّليـه الأمـيركيّين وغـيرهم)؟ وكـذلك: فـإنّ البعض مـا فـتئَ يحـدّثك عن "المجتمـع الـدّولي"، في مـا بـاتَ يُشـبه محاكـاة سـورياليّة للواقـع (أو ببساطة: للوهم وللخيال). بالله عليك مولانا: عن أيّ "مجتمع دولي" تتحـدّث في مـا يخصّ قضايانا مع "إسرائيل"؟ أين كان المجتمع الدّولي هـذا عنـدما قـامت بريطانيـا بهذه "الزّعرنة" وفرضت تواجد هذا الكيان على أرض غيره وفي ديار ليست ديـارَه؟ أين كان المجتمع الدّولي هذا عندما قامت "إسرائيل" بهجماتهـا التوسّـعيّة المختلفـة منذ تأسيسها (على أقلّ تقدير)؟ أين كان المجتمع الدّولي هذا أمام مختلـف تعـدّيات ومخالفات وجرائم هذا الكيان: الإنسانيّة والأخلاقيّة والقانونيّة؟ بل: أين هو مجتمعكم الدّولي اليوم في مـا يخصّ الـذي يحصـل في غـزّة مثلاً؟ أيّ "مجتمـع دولي" نقصـد تحديـداً في قضـيّة "إسـرائيل" مولانـا؟ مـع احترامنـا الشّـديد والصّـادق لأغلب دول وشعوب هذا العالم، ولمبدأ احترام الشّرائع والمواثيق ومـا إلى ذلـك، ولكن: ١/ هـل بيّنت التّجربة أنّ هذا الكيان وأسياده يُردعون فعلاً من قبـل القـوانين الدّوليّـة، مبـدأً وتطبيقاً، عموماً وتفصيلاً؟ ٢/ هل من العقلاني اعتبارنا "بعد مرور كلّ هـذا العمـر".. أنّه يُمكن المراهنة على أغلب الدّول والنّخب الغربيّـة، وعلى عـدالتها وحسـن نيّتهـا، في ما يخصّ مشاكلنا مـع هـذا الكيـان؟ دون حاجـة هنـا إلى الولـوج حتّى في عـالم

نظريّـات المـؤامرة (الحقيقيّ، بالمناسـبة، وإلى حـدّ بعيـد في مـا يخصّ قضـيّة هـذا الكيــان.. ولكن هــذا بحث آخــر): لمــاذا يتجاهــل البعض حتّى الآن تحكّم اللّوبيــات المواليـة لـ"إسـرائيل" بجـزء كبـير من المؤسّسـات وآليـات اتّخـاذ القـرار الغربيّـة والدّوليّة؟ هل يلزمنا أدمغة من عيار دماغ آينشتاين مثلاً لكي نُـدرك أنّـه يتمّ التّلاعب بنا على الدّوام من قبل أغلب هذه الدّول وهذه المؤسّسات.. وأنّ هذه الدّول وهــذه المؤسّسات هي في الأعمّ الأغلب موالية، إن لم تكُن خاضعة، لـ"إسرائيل" (لأسباب معروفة ليست بموضوع مقالنا هنا)؟ ثمّ ترى البعضَ لا يزال يضع ربطة عنقـه وبزّتـه الجديدة على الهواء، ويقول لك: القوانين الدّوليّة تحمينا، فلمـا "السّـلاح"! المجتمـع الدّولي سيردع "إسرائيل" إذا قـامت بعـدوان! فعلاً، لا أسـتطيع فهم هـذا النّـوع من الخطاب ولا حتّى تفهّمه في ما يعني هذه المسألة: ليتَ شِعري.. هل يجهـل البعض، أم يتجاهَل أمامنا عن قصد؟ صدقاً وبكلّ احترام: هل من "مجتمـعٍ دوليٍّ" في قضـيّة "إسرائيل"؟ النّقطة الثّالثة: أمّا النّقطة الأخيرة (لا الآخرة) التي أودّ تناولهـا في هـذا المقال فهي المتعلّقة بمقولة "إنّ الجيش هو من سـيحمي الحـدود الجنوبيّـة ويـردع إسرائيل" (ولا حاجة إذن إلى أيّ نوع من أنواع المقاومة غير التّقليديّة - والمتعـارف عليها في لبناننا وإقليمنا). هنا، طالَ عُمرُك مولانا: عليك أن تنتبه. حذاري! فبالإضافة إلى البُعد عن الوقائع والحقائق.. تشعر أنّ هناك من يتـذاكى عليـك أيضـاً، من خلال وضع رأيك المخـالف وكأنّـه منـاقض للسّـيادة أو متعـارضٌ مـع دور الجيش الوطـني والقوّات المسلّحة الوطنيّـة. إنّنـا أمـام معطىً جيوسياسـيّ خطـير آخـر: وهـو رفض الإدارات الأميركيّة - الحليفـة الحميمـة للعـدوّ قيـد الوصـف والمناقشـة طبعـاً - لأيّ تنويع حقيقيّ وجدّي وملموس لتمويل وتسـليح وتـدريب الجيش اللّبنـاني. هـل يقبـل بعض اخواننا في لبنان، حقّاً وبلا لفٍّ ولا دوران: أن يُخاطر بمعارضة التّوجّه الأميركي هذا أو الالتفـاف عليـه؟ من دون حاجـة هنـا أيضـاً إلى تأكيـد وقـوف جميـع مكوّنـات المجتمع اللّبناني تقريباً، وبطبيعة الحـال، إلى جـانب المؤسّسـة العكسـريّة الوطنيّـة وتأييدها لدورها المركزيّ في الدّفاع عن الوطن وأمنه واسـتقراره (ونحن هنـا أمـام مسلّمة من المسلّمات): لا بدّ من الاعـتراف - مجـدّداً - بأنّنـا أمـام خطـابٍ ضـعيفٍ متهافتٍ في ما يخصّ هذه الزّاوية كذلك. فلو أنّ المقولة هذه صـحيحة في عمومهـا، ضمن السّياق الجيوسياسي والتّاريخي والتّقني المعروف والـبيّن.. فلِمـا اضـطرّ إذن أهلُ جنوبنا وبقاعنا الغربيّ - أصـلاً - إلى حمـل السّـلاح وتنظيم مجموعـات مقاومـة غير تقليديّة (أي خارج إطار العمل العسـكري الرّسـمي و/أو التّقليـدي) عنـد حـدوث الاعتداءات "الاسرائيليّة" القديمة والحديثة والمتجـدّدة؟ في نفس السّـياق العـام: لا شكّ في أنّ هذه المقولة تُغفل معطىً مهمّـاً، ألا وهـو التّجربـة الفاشـلة والمعروفـة للجيوش العربيّة التّقليديّـة في مواجهـة جيش بهـذه المقـدرات والإمكانـات الهائلـة، والمدعومـة دوليّـاً ومن دون قيـد أو شـرط - أو تكـاد. هـل يريـد البعض من الجيش اللّبناني أن يتمكّن من لعب دور لم تتمكّن من لعبه الجيوش العربيّة مجتمعة؟ ثمّ إنّنا

أمـام معطىً جيوسياسـيّ خطـير آخـر: وهـو رفض الإدارات الأميركيّـة – الحليفـة الحميمة للعدوّ قيد الوصف والمناقشـة طبعـاً – لأيّ تنويـع حقيقيّ وجـدّي وملمـوس لتمويل وتسليح وتدريب الجيش اللّبناني. هل يقبل بعض اخواننا في لبنـان، حقّـاً وبلا لفٍّ ولا دوران: أن يُخاطر بمعارضة التّوجّه الأميركي هـذا أو الالتفـاف عليـه؟ لـو أنّ دعاة هـذا الـرّأي نفسـهم يـبيّنون لنـا أنّهم من الجـرأة بحيث يقـدرون على مواجهـة الأميركي في قرار كهذا.. لكان خطابهم أكثر جدّيّـة وأقـلّ سـطحيّة وتهافتـاً. واجهـوا الأميركيّ وطالبوا بتنويعٍ جدّيّ لتمويل ولعتاد جيشنا الحبيب.. إن كنتم صـادقين! هـل سيحاولُ أغلبُ هؤلاء ذلك، أم أنّنا فعلاً أمام حلقة مُفرغة ومجدّداً؟ لا ريبَ أنّ خطاب أهلنا من "السّياديّين" في لبنان هو في جلّه بـل وفي جـوهره: من بـاب مـا لا يُعـوّل عليه، ومن باب الضّعيف والمتهافت، لا سيّما حول هذه القضـيّة – قضـيّة "المشـكلة الإسرائيليّة على حدودنا". ولا مفاجأة بعد ذلـك، بـرأيي الخـاصّ كمـراقب: من كـون "حزب الله" وحلفائه في لبنان.. في موقع فائضِ-فائضِ القوّة المفاهيميّـة بالإضـافة إلى موقع الفائض الكبيرِ للقوّة العسكريّة والتّاريّـة الـتي لا تكفي في مواجهـة كهـذه طبعاً. فخيار المقاومة المسلّحة غـير الرّسـميّة / غـير التّقليديّـة لم يـزلْ هـو الخيـار الأقرب إلى المنطق وإلى الصّواب.. في مواجهة عدوّ كهذا العدوّ. وندعو المخـالفين لنا، بالطّبع ومجدّداً، إلى مواجهة الحجّة بالحجّة والـدّليل بالـدّليل، إن اسـتطاعوا إلى ذلك سبيلا.. وما أدراك، فقد يأتي "التّهافتُ" "بتهافتِ التّهافت".. وربّما يأتي بعدَهما "تهافتُ تهافتِ التّهافت" كما يحبّ هيغل وأهل الجدليّة. وفي النّهاية، إنّ اللـهَ وحـدَه هو العليم: وهو الحاكمُ بين النّاس في ما كانوا فيه يختلفون.

مالك أبو حمدان27/01/2024